

محمّد بن عمار

مُعَبُّورٌ مِنْ طِينٍ

سنة الطبع: النشر ١
مكتبة الآداب ومطبعتها بالجماهيرية ١١٢٧٧
المطبعة النموذجية
٦ سنة الانوار من القاهرة الحديثة



الطبعة الأولى

سنة ١٩٦٩

١

إن من يتحدث إليك في هذه القرايطس التي بين يديك ،
ليس من البشر ... إنه إله ... إله عظيم الحول والطول ،
أقاموا باسمه معبداً ضئلاً ، ونصبوا فيه تمثالاً له فخماً ،
وعكفوا عليه ، يعبدونه ويتزلفون إليه .

إنني إله ... إله في أعين الناس ، أما أنا في حقيقة
نفسى ، فواحد من البشر ... إنسان مثلك ، لا امتياز له عليك ،
لقد رأيت الدين تعيث به الخرافات والأوهام ، فأردت
هداية هذا النفر المضلل ، وتبصيره بجوهر الدين : الصدق
والإخلاص ، والمحبة والسلام ... فتأروا بى ، وكادوا لى ،
واتتمروا ليقتلوني ... بيد أنهم فى النهاية ألغوني ...

— ٤ —

صار لى معبد مهيب ، تحج إليه أفواج المؤمنين ، وصنم
 طويل عريض ، يركع أمامه جموع الآتباع والمرادين ...
 كذلك أرادوا ، وليس لى فيما أرادوه يد أو صنم ...
 دعنى أقص عليك نبتى ، ثم احكم بما شئت لى أو على ...
 ولتكن فى حكمك أخا كرم وسماح ، فالإله الذى تقاضيه
 له نزواته وشهواته ، مهما يتبوأ عرش الإقداس !
 أنا « بتاح » من مدينة « أنب - حن » الخالقة ، ذات
 الأبواب السبعة ، والأسوار الناصعة البيضاء ، سيدة المدائن
 فى العالم المنظور .
 كان أبى من أفذاذ الدولة ، أمينا على خزان « فرعون »
 الأكبر ، مهيما على ثروة البلاد .
 فلما انتهت رحلته فى عالم المنظور ، من دنياك هذه ،

- ٥ -

وانتقل إلى العالم غير المنظور ، عالم الزرقة الصافية ،
عرض « فرعون » على أن أقوم مقام أبي ، وأتابع سيرته ،
وكنت في قمة الرجولة ، أعنى في تمام الأربعين ، فلم أستطع
أن أستجيب له ، واعتذرت شاكرًا لإياه على ما حبانى به
من ثقة وتقدير ، وصارحته بأنى لست الرجل الذى يطمئن
هو إلى التعويل عليه فى هذا المهم الجسم .

نشأت فنى أميل إلى المثالية ، لا طاقة لى باحتمال الواقع
السكرى الذى يحيط بى ، ذلك الواقع القاسم على زيف
وخدعة ، وعلى تنسكر للحقائق الباقية .

وكان بما أيقظ ضميرى ، وأرهف وجدانى ، ما شهدته
من مناظر أليمة حولى ، فى أثناء رحلاتى مع أبى ، نجوب
الأقاليم لجمع الإثباتات وتسخير العبيد .

— ٦ —

و كنت أعجب لمؤلاء الكهنة ، سدة الدين ، من نصبوا
أنفسهم للدفاع عن حقوق المظلومين ، وتذكير الناس
بالخصائص الدينية من سماحة وعدالة وبر ... لقد استحالوا
سادة غطاريف ، يضللون العقول ، ويموهون الحقائق ،
وينشرون بين الناس عقيدة الخضوع والاستسلام ...

وكانت لى زوجة محبة وفية ، عشت معها أعواماً ، ثم
رحلت إلى العالم غير المنظور ، فأقسمت أن أكون حفيماً
بذكراها ما حييت ، وأقبلت على دراساتي وتأملاتي أولها
أطيب وقتى ، وألزمت نفسى أن أنضى طوال الساعات فى
مناجيات وصلوات ...

لقد انكبت على قراطيس الحكمة أعب منها عباً ،
وأضربت عن شواغل الحياة وملاهيها ، فلم أمد ألقى

— ٧ —

« للمرأة ، بالا ، ولم أجعل لفتنتها إلى قلبي سيلا . أما ضرورات
العيش ، فاقترصت منها على ما يقيم الأود ، ويستز البدن ،
وبقي من وطأة البرد ووقدة الحر ...

مالي ولرغبات الجسد ؟ ... إني أعمل على السمو بنفسى
فوق الغرائز والنزعات ... وألفيتنى على مر الأيام قد تحررت
من عبودية المطالب الدنيوية ، إلى مدى بعيد ، وأحسست
أنى قد أصبحت سيد نفسى ، يسدى زمامها ، أوجهها نحو
المثل العليا .

لقد طهرت كيانى ، واستطعت فى ضوء هذه الطهارة أن
أرى الأمور على حقيقتها ، ببصيرة نيرة ، لا كما يراها
الآخرون الخاضعون لمشاعر منحرفة .

كم انتصتني هذه الدرجة التى نلتها من الطهارة أن أمارس

- ٨ -

رياضة عيفة موصولة . وكـم أحسست الراحة حين بلغت
ذلك الشار البعيد ، وتذوقت حينئذ معنى الزعامة الدينية
الحقة ، والسيادة الروحية العظمى .

بهذا كنت صاحب رسالة يلزمني أداؤها لمعشـرى ...
وشرعت أثبت بين أهل الرأى ما استبان لى من سرائر
الطبيعة وحقائق الوجود ، وما ينبغى أن تقوم عليه علائق
الناس بينهم وبين أنفسهم ، وبينهم وبين الإله الحق ،
فور الأزل ...

ونشبت بينى وبين أهل الرأى مجادلات حامية الوطيس ،
انتهت بأن أثاروا حول ضجة عارمة ، قوامها الآثرة
والحقـد ، ورموني بالخروج على الناموس ، وبالمروق عن
موروث العقائد والتقاليد ...

— ٩ —

وناصبى « بهاتور ، رئيس الكهنة العدماء ، وكان جباراً
طاغية ، يتخذ من سلطانه الدينى مطية لمآربه ، ويلتمس
به إرواء جشعه ...

والتف حولى شيعة أمناء ، ما لبثوا أن نموا وتكاثروا ،
وتميز من بينهم شاب متوقد الذهن ، قسوى العزم ، فيه
تطالع وطماح ، يسمى « سنكرع » ...

وكان « بهاتور ، ١١ بالمرصاد ، يرقب حركاتنا وسكناتنا ،
ويتعقبنا فى كل مكان ، محاولاً أن يشد شملنا ، ويقضى
على ديننا ، ليخلو له الجو ، ويبقى له السلطان ...

وفى أمسية حالكة الظلمة ، وبينما كنا فى مخبئنا
بجتماع للتشاور والصلاة ، فجأتنا جموع كثيفة من جنود
« بهاتور ، واحتدمت على الفور بيننا وبينهم معركة شعواء ،

— ١٠ —

ما أمرع أن استحات إلى مذبحه نكراء ...
 وهبات أشهد الأحداث الدائرة حيالى فى خبل وذهل ،
 وحارلت وقف القتال فأخفقت ... فما كانت نفسى تسوغ
 لى أن أشهد قتل الإنسان لأخيه الإنسان ، ولا أن أغمس
 يدى فى دم إخوانى من بنى البشر ...
 وطار صوابى لم رأى السماء وهى تراق كالأنهار ،
 والأشلاء وهى تتطير فى الهواء ، وأصابتنى لولة من هول
 الفاجعة ، وألفيتنى أهيم على وجهى ، لا أعلم لى
 وجهة سير ...

كنت قد فقدت إحساسى بنفسى ، وإدراكى لما حولى ...
 ... ولما تاب إلى رشدى ، واستجمعت ذاكرتى ،
 تبين لى أنى قطعت شوطا بعيداً من البلدة ، وأنى أضرب

- ١١ -

في الصحراء ناحية الغرب ، بعد أن عبرت النهر العظيم ...
حدث ذلك كله دون وعي مني ...
وجدتني عن كسب من مغارة ، فقصدت إليها أحتجى
بها .. وطفقت جاهداً أستوضح ما مرّ بي ...
وانسرح بي المخاطر يهيم متخبطاً في آفاق الظنون
والاحتمالات والأوهام : أنجا من أتباعنا أحد ؟ .. أنجح
« بهاتور » في القضاء علينا قضاء مبرماً ؟ ... لا ، ان يكون
ذلك له . إن الإله الحق نور الأزل لأرحم وأبر من أن
يطغى تلك الشعلة الوهاجة التي ألهمني إياها ... ان يندثر
ديننا ما دام في بدني عرق ينبض ...
كانت إرادة الإله الأعظم أن أنجو ببدي ، وأن تتصل
حياتي ، لأجل الأمانة ، وأبلغها كاملة إلى البشر . لقد

— ١٢ —

أدركت الآن لم كتبت لى النجاة ، فسلبت من هول
المذبحة ...

وتمنيت أن تكون النجاة قد كتبت كذلك لى
الصفى وحوارىّ الامين ، سنكرع ، عسى أن يحتفظ بها
تركته من تعاليم ، وأن يحى العقيدة الجديدة من أن
تندثر ...

* * *

ماذا أنا صانع الآن ؟ ...
أمن الحصافة والحكمة أن أعود إلى « أفب — سوز » ؟ ...
لا ، لا عودة لى على الفور ...
ليظفرون بى « بهاتور » ، لا محالة إن عدت ، وليقضين
على شر قضاء ، وفي ذلك القضاء على الدين الجديد ...

— ١٣ —

الحيلة أن أستخفي عن العيون بعض وقت ، أرقب
الأحداث ، وأتابع ما تتمخض عنه الأيام ...
ولعلني مستطيع ، إذ نجوت بيدي ، أن أستجمع
لمودة أوائل فيها جهادي ، ما بقي بين جنبي.
ذمء الحياة ...

٦

انحدرت في مسيرى صوب الغرب ، متجنباً المناطق
 العامرة ، ولم تسكن لى وجهة سير ، بل كانت رغبى الأولى
 الابتعاد عن مواطن الخطر ، والاستخفاء فى جانب مأمون
 ردحا من الدهر ، حتى إذا حانت الفرصة رجعت أعاود النضال .
 كنت وقتئذ فى الخمسين من عمرى ، وبين جنبى همة ،
 وفى العمر بقية لبلوغ الأمل المنشود ...

وفى جوف الصحراء النائية ، عثرت اتفاقاً على ناسك
 متعبد ، أبيض اللحية ، فوق الثمانين ، فذر نفسه للعبادة
 الخالصة ، يدعى « كاي » ، ممكنه مغارة ، لا يعايشه فيها
 إلا حفيدة ابنته ، وهى كل ما بقى له من أهله وعشيرته :

— ١٥ —

طفلة فطيم ، اسمها د نفرت ، . . .

وكان هذا الشيخ الناسك قد اعتصم في مغارته إثر محنة
شديدة حاقت به في دنيا البشر ، فحمل تلك الحفيدة معه ،
ولما تسكن قد تجاوزت سن الرضاعة ، فأولاهها من رعايته
وتعهد ما توليه أم رموم ...

عاش هذا الجد مع صبيته على هامش الحياة ، يتأمل في
تعمق ، واستطاع أن يهتدى إلى حقائق من جوهر التدين ،
وأسرار الكون ، فأفكر عبادة الأصنام ، وجنح إلى عبادة
الإله الحق نور الأزل ، يستلهم منه الرشيد ، ويضرع إليه
أن يرفع عن الأرضي ظلم الإنسان لأخيه الإنسان

ما إن لقيت هذا الناسك المعتزل ، ودار بيننا الحديث
في كنهه الأشياء ، حتى توافقت آراؤنا ، واتحدت مرامينا ،

-- ١٦ --

وسرعان ما توثقت بيني وبينه ألفة وعجة ، فخطت رحالي
عنده ، وأزمت المقام لديه ...

كانت البقعة التي يسكنها بحيدة عن العمران ، وسط
رمال الصحراء ، إلا أنها لم تكن موحشة كل الوحشة ،
فقد كان فيها نبع صغير ينبثق من بين الصخور ، يفيض
بمائه أحيانا ، وحوله نخيلات متناثرة ، وكانت منطقة النبع
صالحة لزراعة الشعير ...

اتخذ الشيخ « كاي » مقامه في المغارة ، على مقربة من
النبع ، وجعل من ذلك المسكن القصي منمكا لطيفا صالحا
لحياته هو وصديقه الوسيمة ...

وقد أطلقنا على تلك البقعة اسم « الواحة الخضراء » ،
وطاب لي العيش فيها ، أمارس مع القديس « كاي » شعائر

— ١٧ —

التعبد ، وأطارحه في الحين بعد الحين الحديث في جوهر
الحقيقة ، محاولين أن نخط للبشر عالماً أفضل من عالمه المملوء
بالشرور والأكدار ، عالماً تحوطه السعادة والأمن والسلام .
وفي الأماسي المقمرة كنّا نجلس بباب السكف ، يطبق
علينا الصمت طوراً ، ونتناقل المسامرات الفلسفية أطواراً ،
والهدية في حضن جدها الأكبر ، تستمع إلى الحديث ،
باديء بدء ، ثم يستبد بها النعاس ، والجد يلفها بذراعيه
في رفق وحنان ...

وكنّت أخص الصغيرة ببعض وقى ، الأعباء وأعابها ،
نتقادف بكرات أصطنعها من الأعشاب وسعف النخل ،
أو نتجاري في لعبة الاستخفاء ، فتتوالب أُمامي في نشطة
الظبي ، وتتصايح تصايح المصفور ، ثم تندفع على صدرى
مبهورة الأنفاس ، موردة الخدين . وطالما سويت لها دى

— ١٨ —

في نماذج شتى من بشر وطير وحيوان ، ثم اخترع لهذه
الدمى قلوبا وسيرا وأفاكيه ، أروها لها في تبسط ، فتصني
لى الصبية في بشر وتشوف ... وهكذا ألست بي ، وركنت
إلى ، واتخذت منى أبا رحيا ، وعشيرا ودودا .

وتواردت أعوام ، وثقلت الشيخوخة على الناسك
وكاى ، .. أما الصبية هـ نفرت ، فقد شب شبابها ، فازدمرت
ونضجت ، كزهرة الصحراء ، نقيصة طاهرة ، فيما صدق
وإخلاص ووفاء .

وكثيراً ما كنت أرقبها ، وأنا مغمور بموجة من سعادة
فياضة ، ثم لا ألبث أن أستشعر الإشفاق عليها ... يا للقدر
الذى تركها تحيا فى ذلك المنفى المسحيق ، منقطعة عن الدنيا ،
وهى الوسيمة التى لم تخلق إلا لى تستمتع بشبابها ونضارتها ،
وبمناجى الحياة حوالها . بيد أنى أسارع فأنتى باللائمة على

— ١٩ —

نفسى ، لسوء تفكيرى : أية حياة أخرى أنفدها لها فى
 دنيا الشرور والأكدار ؟ أليس خيرا لها أن تغدو حوارية
 لهذا الشيخ المبارك ، ترتوى من حكمته ، وتقبس من نور
 إيمانه ، وتنمو فى الرحاب الفساح ، تصل روحها بروح
 الحق السرمدي ؟

وكانت قوافل مينة للتجارة تعبر بنا فى فترات متباعدة ،
 غتمكت بيننا مهلة استجمام ، وتستقي من النبع الصغير ،
 وتوافينا بقليل من الزاد ، التماسا لبركة الشيخ « كاي » ،
 وثقة بأن نفحة رضاء خايقة أن تكفل نجاح السعى
 وأمن الطريق !

وكنا نتناقط من هذه القوافل العابرة نثارا من أنباء
 الدنيا البعيدة التى تركناها وراءنا ، فعلبت أن ديننا جديدا
 شرع يبسط نفوذه ، وأخذ الناس يدينون به ، وأن امرأ

— ٢٠ —

يدعى « سنكرع » ، قد غدا كاهن هذا الدين ، يبشر به ،
ويدعو إليه ...

أحقاً ؟ ... أهذا هو « سنكرع » ، رفيق وحواريّ الذي
خلفته يوم فارقت قومي ، وأنا في نظرم هالك أو في
حكم المالكين ؟

٣

وتعاقبت فصول ، وعلبت أن الدين الجديد يزداد
انتشاراً ، وكنت قد أمضيت في صحبة القديس « كاي »
نحو خمسة عشر فيضانا ... ومرة أنبأتني إحدى القوافل
أن « نيناو » الأمير الجديد قد اعتنق دين « بتاح » ، وأن
« سنكرع » قد غدا الكاهن الأكبر في ربوع البلاد ...
وهرعت أبحث عن « كاي » لأزف إليه البشرى ،
وأقول له : لقد حان أن نخرج من عزلتنا ، ونعود إلى
مجتمع الأحياء ، نواصل الكفاح في سبيل خلاص البشرية
من الجحالة والظلم والعدوان ...
وما إن بلغت المغارة ، حتى ألفت « نفرت » جالسة
متربعة على الكشيب الأصفر ، تحت وهج الشمس ، بعيداً

— ٢٢ —

هن ظلال النخيل ، وقد عقدت يديها بصدورها ، وحلت
غدائر شعرها ، فانتفش على رأسها ، وتهدل على كستفيا ...
كانت صامتة يعروها ذهول ، واستبان لى أنها كست نحرها
بزرقه قائمة ، فقلت على الفور :

ما بك يا « نفرت » ؟ ...

قالت ، وهى ترمى ببصرها فى الأفق البعيد :

لقد رحل « كاي » إلى برزخ الأرواح ، حيث يبدأ
رحلته فى عالم الأضواء الزرق ...

فركعت من فورى ، أطلب للروح المتحررة طمأنينة
الخلود فى العالم السرمدى ...

وشغلنا أياما وليالى ، أنا و « نفرت » ، بتحنيط
الجثة ، ثم قمنا ببناء مدفن من حصياء الصحراء وأحجارها ،
حيث تتراعى ظلال النخيلات ، وأقفلنا على « كاي » العظيم

— ٢٣ —

باب المقبرة ، كى يبقى فى هدوء حتى يوم الخلاص ...
 وواصلت حيانى مع « نفرت » وحيدى ... وأتتفأ أنها
 كانت حياة قلقة حائرة ، لم تخل من نوبات اضطراب نفسى ...
 واشتد فى الحنين إلى الرحيل ... وطفقت أتحنن فرصة
 العودة إلى « أنب — جز » وطنى الأول ... لن أتتأمر مرور
 قافلة ، فإن القوافل بمجولة الموانئ ، وربما افتقدتها
 الشهور الطوال ...

ويوما عدت إلى « الواحة الخضراء » بعد جولة مفضلة
 فى مطارح الصحراء ، وقد تلهبت عاطفتى ، وتناوحت
 الأفسار فى رأسى ، فألفيت « نفرت » فى ظل النخيلات
 جالسة تطحن السمير ، وقد مشطت شعرها ، وتضوع منها
 شذى طيب ، وبانت حول رأسها عصابة بيضاء ناصعة ،
 على حين كانت عيناها النجلاوان المكحولتان بالزرقاء ترميان

بنظراتهما الحالمسة في الأفق العريض ... أما وجهها فقد
اصطبغ بحمرة أشبه بحمرة الأجر المحرق القريب العمود
بالخروج من النار ...

كانت تطحن الشعير في هواة ورفق ، يداها تدوران
كأنما تتلبيان ، وجلستها مترامية ، ورأسها مسند إلى
إحدى النخيلات ...

ووجدتني أقف لأتملي هذه الصورة الرائعة ... وكأنما
هي قبسة من النور الأزلى ... ولبثت في وقفتي أعب من
ذلك السحر العلوى ...

وأحسنت بي ، ولا أدري كيف ، فإني حرمت على
ألا تصدر مني حركة أو نائمة ، وأدارت بصرها إليّ ،
فأشرق وجهها ، وتلفت في عينيها هالة الكحل الأزرق اللامع ...
واندفعت نحبي تقول :

— ٢٥ —

لقد رأيت الساعة رؤيا عجيبية ...!

— أية رؤيا ؟ ...

— رؤيا منام ...

— ولكنك يا بنية كنت يقظي مفتوحة العينين ...

— أ كنت ترقبني ؟ ...

— لبثت وقنا مأخوذا بضوء ألاق ينبعث من روحك

الصافية ...

— أى ضوء تعنى يا «بتاح» ؟ ...

— ضوء وهاج ... لكأنه قبسة من النور الأزلى ...

أنت يا «نقرت» فيك من روح الإله نصيب ... إن تلك

السنين التي قضيتها بين الرمال الشاسعة ، تحت وقدة الشمس

الساطعة ، في هذا المكون الشامل العميم ، أفاضت عليك

العذوبة والصفاء والطار ، وجملت منك مخلوقا أقرب إلى

- ٢٦ -

نور الازل منه الى ظلمة الإنسان ...

فأسبلت جفنيها ، وقالت في صوت مهموس :

هذه الرمال الشاسعة ، والأشعة المتوهجة ، والسكينة

الشاملة ، لن تبقى من حولي ... أحس أنها لك زوال .

فأمسكت بيدها ، وقلت في تلهف وتخوف :

ماذا تقولين يا بنية ؟ أفصحى .

— إنها الرؤيا التي رأيتها الساعة ، وأنا في غيبوبة اليقظة .

فشددت على يدها أقول :

ماذا رأيت يا « نفرت » ؟ ماذا ؟

فواصلت قولها وهي مغمضة العينين :

شاهدت بصاتين خضراء ، ومياها دافقة ، وأناسا

متزاحمين ... دنيا عجيبة ليس لي بها عهد ...

فصحت على الفور :

— ٢٧ —

يا لروعة الروح المشرقة ... ألم أقل لك إنك قبسة من
النور الأزلى ؟ ... ستتحقق رؤياك يا « نفرت » ... بل إنها
في سبيل التحقق الوشيك .

ففتحت عينيها جزعة تقول :

كيف ذلك يا « بتاح » ؟

— أتيت الساعة لأكبرك بأننا سنرتحل .

فهممت ، وقد اشتد جزعها :

نرتحل ؟ إلى أين ؟

— إلى الأرض الخضراء ... عروس النهر العظيم !

فالتصقت بي راجفة ، وقالت :

وأين هذه الأرض الخضراء ؟

— إنها « أنب - حز » ذات الأبواب السبعة ،

والأسوار الناصعة البياض ، « أنب - حز »

— ٢٨ —

العظيمة ... هنالك نبدأ حياة جديدة ، حياة الجهاد
في سبيل نشر الدين الحق ، ديننا الجديد ، نقيم
صرحه على دعائم وطيدة ... هنالك نعلي كلمة الحقيقة
العليا الى تستمد من النور الازل وجودها .

فازدادت انكاشاً واحتفاءً بي ، فأحطتها بساعدي ، وقد
مضى في روعي شعور غبطة وارتياح لم أعهد من قبل .
وغمضت و نفرت ، :

لأني خائفة ...

— أنخافين وأنا معك ؟ سنرتحل حتماً يا و نفرت ، ا

فانزعجت نفسها مني بخافة ، وهي تقول :

لا ... لا أرتحل ...

— كيف ؟

— لا أبرح تلك البقعة الطاهرة ... مشوي ، كاي ، ...

- ٢٩ -

أنا هنا موصولة به ... قلبي هنا دفين تحت هذه

النخيلات ، فكيف أرتحل عنه ؟

- إن « كاي » معنا حيثما نذهب يا « نفرت » ... إذا

حجب الناورس جسده اليوم عن دنيانا ، فإن فوره

قد حل في جسدي ، وإن روحه قد امتزجت

بروحي ... لأنني أنا « كاي » يا بني « نفرت » ...

ألا تريدني أهلا لأن أكونه ؟ ألا تحسبيني خليقا أن

أحوطك بحبي ، وأمنحك هداية وأمنا ؟

فترققت في عينيها الدموع ، وهي تقول في صوت

المستضعف :

هنالك في « أنب - حز » سوف يبتلعك الزحام ...

سوف يحتلفونك مني . . . سوف أفقدك

فلا أجذك معي .

.. ٣٠ ..

فتلقيت وجهها بين يدي ، وأنا أحرق في عينيها
المنخضلتين ، وقلت :

لن يستطيع أحد أن يبعد بيني وبينك ... لقد

أصبحت جزءا من كياني ، لا انفصام لي عنك ...

أنت حواريتي الآمنة ، وريية تعالبي ، واتسكون

خير معوان لي على أداء رسالتي .

ووجهتها تهوى على يدي ، وانخرطت، تقبلهما في حرارة

واحتياج ...



أودعنا «كاي» مستقره الصخري ، وتزودنا بما لا غنية
عنه لنا في رحلتنا الأرضية ، وخرجنا من واحتنا
الصخيرة ، على أكتافنا أحمالنا ، نمضي على الطريق ،
معصوبين ناحية الشرق .

شدّ ما كلفتنا الرحلة من مشقة ... صحراء قاحلة جرداء ،
لا تعرف لها بدءا ولا منتهى ، ترميها الشمس نهاراً بشواظها ،
فتحيلها أنونا يتضرّم ، ويغزوها البرد ليلا بصقيعه وأهويته
كأنما هي مناشير تهرأ أجسادنا ...

وكنا إذا متع الضحا ، أوينا إلى أقرب كهف أو جحر
نلتمس فيه الوقاية والراحة ، فإن لم نجد كهفا ولا جحراً ،

— ٣٢ —

نصبنا شبه خيمة تصد عنا وقدة الهجير ، حتى إذا أرخى
الليل سدوله نشطنا للسرى ...

وكثيراً ما كنت أجد « نفرت » تعرفها كآبة ، ويبدو
عليها استسلام حزين ، فأحاول جهدى أن أسرى عنها ،
أغنى لها مقطوعات ، أو أسمحها بعض القصص والأفالكه ،
أو أسترسل أمامها فى مناجيات صوفية للإله الحق ،
نور الأزل ...

وكانت فى أوقات راحتنا نلوذ بقدمى ، متوسدة ركبى ،
فأربت شعرها فى حنو وترفق ...
وذات ليلة ، والقمر يكسو الصحراء الواسعة بالألأله ،
قلت لها :

شدة ما أنا ضائق بمتابع هذه السفرة التى تحتملينها بصبر
وجلد ... ولكن كل شئ يهون ، وستتحقق بغيتنا قريباً

— ٣٣ —

في « أنب — حز » ... لقد أصبحت منا دانية المنال ...

فأجابتنى ساهمة :

أخشى أن ألقى في « أنب — حز » من الشدائد والمصاعب

ما تتضاءل بجانبه متاعب هذه السمرة ...

-- في « أنب — حز » ، نلقى خيراً وبركة وسعادة ...

فالتفت عيناها غضباً ، وقالت :

لر استعلت أن أحرق هذه المدينة لفعلت ...

فقمقمت أقول :

يا للطفلة ... لن تحرقها يا بنية ... بل مستحيينا ...

فأمسكت يدي ، وشدت عليها في جزع ، تقول :

ما ذكرت « أنب — حز » إلا استشعرت في أوصالي

خوفاً وقلقاً .. أرى في المنام أن أسوارها البيضاء سهوى

على رأسي ، وتدفني تحت أنقاضها ...

— ٣٤ —

فأحطتها بذراعى ، وقالت :
 « نفرت ، يا ابنتى ... ان تنقض عليك أسوار المدينة ،
 بل ستألك بالترحاب ... ستفتح لك أبوابها السبعة على
 سعتها ... فتدخلينها آمنة بسلام ...
 وبلغنا بعد لائى منطقة منافع النيل المروية ، ذات
 الماء المنحل ، والعشب المتكاثف ، وفيها تكن أخطار
 الضواري ، ولسكننا تفاديننا من هجمات التماسيح وعجول النهر ...
 بما وهبى الإله من فطنة وبصيرة ...
 ولطالما حملت « نفرت ، على كتفى ، وأنا أخوض
 تلك المنافع ، فتشيع فى نفسى راحة وهى متشبثة برأسى ،
 وقدماهما ترتطبان بعصدي .. ولطالما اتخذنا من فروع
 الشجر وجذوع النيل مراكب تعيننا على اجتياز المنافع
 البعيدة الأمايق ..

— ٣٥ —

وأخيراً وصلنا إلى مجرى النهر العظيم ، فعبرناه ...
ولما احتوتنا الأرض اليابسة على الشاطئ الآخر ، تبدت
أماننا الخضرية على مد البصر ، فمضينا نسير ...
وطالعتنا « أنب - حز » بأسوارها العالية البيض ...
ومثلت أحرق فيها من بعيد ، وأنا مهوور العين ، جياش
النفس ، وإذا بي آخر راكماً ضارعا إلى الإله الأعظم أن
يسدد خطاي ...

٥

ووصلنا إلى الأسوار ...

ومثلنا أمام البوابة الكبرى ، حيث يترامى الناس عليها
بين قادم ومرتحل ، وجعلت أتصفح الوجوه ، لعل أعر
بينها على من أعرف ، فلم أجده من يستوقف ناظري ...
وتجلت لي رسوم حائطية ، تمثل مشاهد دينية ، فوقفت
حيالها أنظلع ...

وبدت على الدهشة ، فقالت لي « نفرت » :

ماذا في الأمر يا أبي ؟

فطفقت أعصر جبتي ، وأنا أنتم في رسوم نظري ،
أحاول أن أكتنه معناها ، مهمهما :
رسوم وكتابات لا أفقه لها مدلولاً ...

— ٣٧ —

— إن ما يخفى علينا اليوم ينكشف سره لنا غدا ...
صبرك ...!

وكان عن كذب منا رجل ينظر إلينا متعرفا ، فتداني
منى يقول :

يبدو لي أنكما مغتربان

— نعم يا سيدى ...

— أطلبان عونا ؟

— أرغب فى استجلاء معنى هذه الرسوم .

— إنها صور تمثل السكاهن الأعظم « سنكرع » وهو

يقدم القرابين مع الحواريين إلى الإله « بتاح »

— « بتاح » ... الإله ؟

— نعم أيهما الرجل الطيب ... إنه إلهنا ... باعث

ديننا الجديد .

— ٣٨ —

— أعلى ثقة أنت بما تقول ؟

فأبسم الرجل ، وهو يرت كتنى ملاطفا ، وقال :

ليس فى الأمر من غرابة ...

والتفت إلى « نفرت » يقول فى ترفق :

اعتنى بأهلك يا بنية ... إن وعشاء الطريق أجهدت قواه .

وما لبث أن انصرف عنا .

وقلت لـ « نفرت » :

أسمعت القول ؟

— إن إلههم الجديد يدعى « بتاح » ...

— وهذا ما يحيرنى .

وعدت إلى الرسوم أقلب فيها النظر ، وألفيتنى أغنيهم :

« بتاح » أصبح إلهما للدين الجديد ! ...

فقلت لى « نفرت » :

— ٣٩ —

أىّ ، وبتاح ، تعنى ؟ أنت ؟

فقلت مجيبا :

ذلك ما أخشى أن يكون !

فرفعت ، و نفرت ، وجهها إلىّ ، قائلة فى سداجة بريئة :

ألا يروك أن تكون إلها ؟

فأجبتها على الفور ، وأنا أمسك بيدها :

الزى الصمت يا ، و نفرت ، ... لأنها ألغاز ... لابد أن

الذين ما وراها ،

وسرنا مجتازين البوابة ، وقلت لأحد الأحراس :

أنا مغترب يا بنى ... أخبرنى أين ألقى رئيس الكهنة ؟

— فى المعبد الكبير ... مكانه المختار أيها الشيخ الغريب .

وشكرت له ، وتابعت خطوى ، وطوتنا المدينة فى

جوفها ، ودارت الدنيا أمامى ، وزاغ بصرى ...

— ٤٠ —

هذه د أنب - حزن ، أراها بعد اغترابي الطويل ...
 خرجت منها طريداً مهدر الدم ، وعدت إليها اليوم وأنا في
 دوامة من المعميات !

ما بال هؤلاء العصابة يشيرون إلىّ ، ويتهامسون بي ،
 وفي نظراتهم تساؤل ، كأي من عجائب المخلوقات ؟ ...
 وما هؤلاء الأطفال يفرون من وجهي فزعين ، كأي من
 أغوال البراري ؟ وما للفتية العابثين يقذفوني بالحصى ، كأن
 بي جنة ؟ يا لهذا اللقاء الاليم !

وبوضوح على د نفرت ، وهي تدير بصرها حولها سيماء
 خوف واستطلاع ... وأحسست بيدها تشد على ساعدي ،
 فقلت لها :

ما بك يا ابنتي ؟

فهمست لي :

- ٤١ -

إنها المدينة التي رأيتها في نومي تتساوى على رأسي ،
وتواري في ركامها .
فلاطفها أقول :

أنت في حماي ... لا تخشى شراً ...

وأخيراً اهتديت إلى المعبد الكبير : بناء شامخ
الذي ، ألفتى أنا له في تهب وتعجب ، وبيننا أنا مستغرق
في هواجسي وأخيلتي ، إذ علت ضجة ، وساد هرج
ومرج ، وألتقطت أذني أصواتاً تقول :
« سنكرع » ... رئيس الكهنة « سنكرع » .

وما هي إلا أن أقبل علينا موكب حافل ، والناس على
جانبيه مطاطة رؤوسهم من خشوع . ولما اقترب مني استبان
لي من نغمته وأهته ما لم يخطر لي ببال ... شاهدت محفة
تجملها أستار من سندس ، يحملها عبيد أشداء ، أجسادهم

— ٤٢ —

العارية تلتصع في وهج الشمس التماع الصفائح المصقولة ، ومن
حول المحفة كهنة وحاشية وجنود .

ولمحت في المحفة رجلا جليل المنظر في حلة ثمينة ،
تحيط به الوسائد والنسارق ، وتتعهده المراوح الكبيرة
يمنة ويسرة .

محال أن يكون هذا هو صاحبي « سنكرع » ... محال !
وملت على رجل بجوارى أقول :
من يكون صاحب هذه المحفة ؟ ...
فأجابني وهو مخني القامة :

ألا تعرف رئيس الكهنة « سنكرع » ، ...
ولاح لي وجه صاحب المحفة بملاحه ، فملكني ذهول ،
وانتظرت حتى ترجل ، فخطوت إليه ، وأنا بمسك يسد
« نفرت » ، أدفع جموع الناس دفعا ، وسمعت زجرة الخلق

— ٤٣ —

من حولي ، وشدّ عليّ الحراس يقولون :

ماذا تبغي ؟...

فصحت أردد :

أريد أن ألقى رئيس الكهنة !...

وتجمعوا دوني يأخذون عليّ الطريق ، وازددت صياحا :

اتركوني أذهب إلى رئيس الكهنة ... أريده لأمر جلال ...

وسمعت صوتا مهيّبا يقول :

خلوا عن الرجل ... ليتقدم منا ...

وأقبلت عليّ « سنكرع » ومعى « نفرت » ، وبهرت

منظره ، فوقفت حائرا مباهل الفسحر ، وسمعته يستأنف القول :

ماذا تطلب يا رجل ؟...

فسموت إليه ببصرى مهتاجا أقول بلم فمى :

إني لك صديق قديم ... طال اغترابي ... أريد أن

— ٤٤ —

أفنى إليك بحديث خطير ... ألا تعرفي ؟
فتفحصني لحظات ، وقد عقد ما بين حاجبيه ، ثم جمجم :
سألقاك بعد حين ...
والتفت إلى عريف أحراسه يقول :
قودوا الرجل وابنته إلى مشوى الغرباء ... ليسكونا
في حراسة المعبد « رخت » والأمة « خنوت » ...
فأحاطت بي وبالفاتاة شذمة من العسكر ، على حين
سار رئيس الكهنة إلى باب المعبد ، متهادياً عليه هامة ...

٦

كان مشوي الغرباء الذي ساقونا إليه ، جناحا مستقلا في
المبنى الخافي للعبد ، وفي حجرة متواضعة منه كان مقامنا ،
يتولى حراستنا العبد « رخت » والأمة « خنوت » .

ومرت بي فترة حسيرة وحنق ، واستبد التعب
بـ « نفرت » ، فلكها سيات ، فبسطت عايتها دثارا ، وجلست
منها عن كشب حذرا أترقب .

وبينما أنا في ملتطم من فررض وظنون ، قدم الحجرة
العبد « رخت » والأمة « خنوت » ، وكانا متماثلين في
بساطة القائمة وصلابة العود ، كأنهما محاربان جسوران ،
يبد أن « رخت » جهم صارم الملاح ، على حين بدت
« خنوت » أنيسة تلوح على محياها بشاشة ...

— ٤٦ —

أبلغني «رخت» أن رئيس السكينة يبغيني ، فنهضت على الفور ، ونظرت إلى «نقرت» جزعا ، فعجلت «خنوت» تقول :
لا تخش عليها بأسا ... إنها في أمان ... سأرحاها ...
وسرت مع «رخت» يشملنا صمت عميق ، وجاس بي خلال سرداب تغشاه عتمة ، فأنهى بنا إلى باب دخلنا منه ،
فإذا نحن في حجرة متوسطة تسكاد تخلو من أثاث ...
وسمعت «رخت» يقول في صوت الأمر :
انتظر ... لا تبرح مكانك ...
وانصرف عني في خطا ثقال ، وقد رد الباب خلفه ...
ومثلت أقلب الأمر على شتى وجوهه واحتمالاته ...
وصاغت مسامعي خطوات متسارعة ، وما هي إلا أن
انفرج الباب عن طيف «سنكرع» ... دخل ، ويده أغلق
الباب ، وطفق يتأملني متفحصا ، وعيوننا موصولة ، ثم

— ٤٧ —

خطا نحوى فى ريش ، وقال رزين اللهجة :

أفصح عن شخصيتك ... من تكون ؟ ...

فأجبتة :

ألا تعرفنى يا « سنكرع » ... أنا صديقك القديم ...

أنا « بتاح » ...

فتعقد جيئنه ، وهو يردد مهمهما :

« بتاح » ... « بتاح » ... أمر لا يستسيغه العقل ! ...

فأقبلت عليه مهتاجا أقول :

أنعم النظر فى وجهى ... أخفيت عنك سمانى إلى هذا

الحمد يا « سنكرع » ؟ ... أنا « بتاح » ... أنسيت ما كان

من أمرى فى نشر العقيدة وإحياء الدين ؟ ...

— صه ... لا تعلم من صوتك ...

... أعرفتنى أم مازلت تنسكنى ؟ ...

— ٤٨ —

— لقد خاسرني فيك شك ، حين لقيتك بباب المعبد ...

إلا أن معرقي أو إنكاري لا يقدمان ولا يؤخران ...

لم يعد لذلك كبير شأن الآن ...

قال ذلك في لهجة ترفع ، فقلت :

— أسألك الصراحة ... أما زلت تشك في أني ديتاح ؟ ...

فأجاب :

— لم تعد شخصيتك ذات بال ... لقد فصلنا في أمرها

فصلاً حاسماً لا يقبل المماودة ...

فنظرت إليه مغيظاً أقول :

— يبدو لي أن عودتي لم تقع موقع الرضا منك ...

أسألك قدومي ؟ ...

— لا ... البينة ... ليس في قلبي إلا الشفقة عليك ...

— الشفقة على أم الإشفاق مني ؟ ...

— ٤٩ —

- أى إشفاق ؟... أنا لا أخشى أحداً ...
- لا تحسبني يا « سنكرع » ، أنا فاسك فيما تم لك من شأن ...
- المنافسة تقوم بين اثنين من البشر يا هذا ...
- ألسنا كلانا من البشر ؟ ...
- فصمت لحظات ، وهو يرمقني بنظرات غامضة ، وقال :
- أنا من البشر ... أما أنت ...
- فبادرت أقول :
- فمن أكون إذن ؟ ...
- أنت ... ما أنت إلا طيف ... خيال لشخص
- لا وجود له ...
- أهكذا تصفني يا « سنكرع » ؟ ...
- فتقدم مني ، وأمسك بساعدي يضغطه ، وقال :
- ألا تعلم أن « بتاح » هو إله هذا البلد الأمين ؟ ...

— ٥٠ —

— لم يكن «بتاح» إلها ... إنه بشر من لحم ودم ...

وما هو ذا يتنفس أمامك ...

— حذار أن تقول إنك «بتاح» ، إذا أردت لنفسك

السلامة ... هيهات أن يكون معبود هذا البلد رجلا

يمشي على الأرض ، وما يجرؤ اليوم أن يتسمى باسمه

واحد من البشر .

فألفيتني أضرب رأسي بكلكلتي يدي ضربات متوالية ،

وكان بي لوثة ، وتصابحت قائلا :

أكاد أجن إزاء هذه الطلاسم والأحجيات ...

فقادني «سنكرع» إلى المتكلم ، وقال في هدوء :

جلوسا ... فتحدث معا في روية وهدوء ... ولأن

يستعصى علينا حل نرتضيئه ...

وجلسنا صامتين مليا ، ثم استأنف «سنكرع» قوله :

— ٥١ —

— في المعركة التي دارت بيننا وبين أنبعا « بهاتور » ،
أيقن الجميع أن « بتاح » داعية الدين الجديد سقط
صريعاً ، وتمزقت أوصاله ، وتناثرت مختلطة
بأوصال من سقط من الشهداء ، فلم يعثر له
على أثر ...

— وأنت ماذا كان عليك بجلية الأمر ؟ ...

— لم أتحقق الأمر في دوامة الأحداث على يقين ...
أنجما « بتاح » بيدنه ، أم لقي مصرعه ؟

فقلت وأنا منكسر الرأس ، أضغط جبهتي مضغطاً :
لم أستطع وقف القتال في تلك الليلة الليلاء ، وهالني
تساقط الأبرياء ، وغشيتني ذهلة ، فلم أدر بنفسى
إلا وأنا في متاهة الصحراء

وأمسكت عن الكلام ، فسمعت يقول :

— ٥٢ —

واصل قولك ، وحدثني بما كان في غيبتك ...
 فقصصت عليه قصتي ، وكيف اهتديت إلى الشيخ
 « كاي » ، وكيف أمضيت معه بقية أيامه ، وكيف عدت
 مع حفيده « نفرت » التي تبنيها إلى أرض الوطن ، وقلت
 في ختام حديثي ، ولهجتي فيها مرارة وأسف :
 عدت لأرى الدنيا غير الدنيا ، والدين غير الدين ...
 ورحمت أذرع الحجره بخطوات مضطربة ، وأنا أردد :
 أين تعالمني التي تركتها خافي ، وأنا أرجو لها النور
 والازدهار على يديك ؟ ... وما خطب هذا الإله
 الجديد ، إله الزيف والضلال ؟
 فنهض « سنكرع » ، ووقف أمامي يحدجني بنظره ، وقال
 خشن النبرات :
 اقصد في قولك ، واعلم أن كل ما نسموه عين الصواب ،

— ٥٣ —

ثم رمى الآفق بعينه ، وكأنه يستعيد حلما بعيداً ، وقال :
 كاد الدين يندثر ، وأصحابنا يتهاوون جملة في المعركة ،
 الشعواء ، وأنت لا تعرف لك مهير ، فاضطرت
 أنا وحفنة من الشيعة تدخيم الجراح أن نتواري
 عن العيون ، نحتمين بالكهوف والأجحار ، فراراً
 من التعب والطلب ... يالها من أيام شداد ...
 جزناها بشق الأنفس ، وأوشكنها فيها أن نفتان ،
 فتخطوى راية الدين معنا ، لولا معونة الأمير الشاب
 « ميناو ، ابن فرعون ...

فتطلعت إليه متذكراً ، أقول :

« ميناو ، ... كنت أعلم ما بينه وبين رئيس السكينة
 « بهاتور ، من شقاق ... ولا أنسى أنه عرض علينا
 الانضمام إلينا ، فلم أرتض أن يتخذ نصره الدين

— ٥٤ —

سبيلا إلى مأرب له ، يشقى غليله ...

فنظر إلى ، وقد برقت عينه ، وقال :

لقد سعى إلينا هذا الأمير ، وقد ضاق ذرعا بطغيان

رئيس السكينة « بهاتور » وتسلمه على المدينة ، حتى

لم يبق لفرعون معه سلطان ... سعى إلينا متودداً

لمبادئ الدين الجديد ، وأمدنا خفية بما استطاع

من عون ، ونذر أن يعترف بديننا إن ولى الأمر

بعد أبيه ، تخلصاً من وطأة « بهاتور » ... وكان ! ...

— و « بتاح » ... كيف صار هندكم إلها ؟ ...

نخطأ بضع خطوات ، ثم عاد يقول :

نعم ، لقد صار إلها ... بعد انتهاء المعركة ، شاع

بين الأنصار أن « بتاح » ارتفع إلى العلا ، عقب

مقتله ، وأن روحه قد اتحدت بالقدس الأسنى ،

— ٥٥ —

فإذا هو إله ، وما لبثت الإشاعة أن أضحت عقيدة
راسخة لا يززعها ريب ...

— وكيف أبحت لنفسك أن تجارى القوم فيما ابتدعوا
وما أشاعوا ؟

— إنقاذاً للعقيدة ، وجمعاً لشمس الانصار ، بعيد أن
تخلى عنا « بتاح » ولم يظهر له أثر ...

... لم يكن استخفافاً تخلياً عن واجب ... لقد آثرت
النزوح عن بلدى ، والاعتكاف فى مكان قصي ،
بعد أن تبين لى فى وضوح أن مواصلة الدعوة إلى
دين جديد فى ذلك الوقت تقتضىنى إرافة دماء
وإزهاق أرواح ... وهذا ما يأباه وجدانى كل
الإباء ... لقد دعوت إلى دين مضافة وسلام ، لا دين
حربى وصدام ...

— ٥٦ —

— هذه حكمة تستوحى فيها مثلك الرفيعة ، وإنها
لتتنافى مع طبائع الاشياء ، ولا تؤايم ضرورات
الحياة في الهدم والبناء ...

— أية حياة تلك التى تقوم على عداوة وصراع ؟
— إن الحياة جهاد فى سبيل العقيدة ، فإذا لم يكن جهاد
فلا عقيدة تحيا ، ولا دين يسود ... إن هو إذن
إلا جمود الضعف والتخاذل والاضمحلال ...

— أمتهى أنت بأنى ضعيف متخاذل يا « سنسكرع » ؟
— لقد أبيت أن تسائر نوااميس الطبيعة ، وتجارى
واقع الحياة ...

— علينا أن نطهر هذه النوااميس من أدرانها ، وعلينا
أن نروض الواقع الهمجى ، ونهذب حواشيه ...
— جهد ضائع ، وسراب خادع ...

... أما عيشتم بالدين والعقيدة أيما عيش ...

فصاح « سنكرع » يقول :

— إن جوهر الدين مصون لم تفسده يد عايش ...

— يا للهنيمة التي سلقت بنا !

فظل « سنكرع » وقتاً صامتاً مرفيع الهامة ، ثم قال :

إني أعمل جامداً في سبيل الخير المطلق ... حررت

البلد من الإرهاب الديني ، وأشعت الطمانينة في

القلوب ، وأصبح الدين بين أهليه سبيل تراحم

وتعاطف ، لا أداة اضطهاد وتشكيل ... لقد عملت

كثيراً ، وواصل عملي ما حييت ...

— ولكن أين دعائم ديننا الأصيلة ، دين الإله الحق ،

نور الأزل ؟

— أصالة الدين معسنة ... من الخير ألا تتعجل ...

— ٥٨ —

ستنمو هباءً الدين وتزعزع مع الزمن ... لأنها اليوم
غراس ، ولكنها في غد أدواح وارفة الظلال ...

— من الذى عليك هذا البدع من القول ؟ ...

— علمتى لإياه تجارب الحياة ...

— تجاربك هذه لا تسير الحقائق والتعاليم ...

فأطلق « سنكرع » ضحكة شواء ، وقال :

الحقائق والتعاليم يجب أن تسير ما تسفر عنه تجارب

الحياة ... لقد عشت أنت ما عشت بعزل عن الحياة

والأحياء ... عشت فى عالم صفته من أحلامك

المثل ... عالم لا يلائم الواقع فى قليل أو كثير !

فنظرت إليه مغضباً ، وهو منتفش فى حلته الثينة ، وقلت له :

الآن يتجلى لى مبعث هذا الترف الذى أنت فيه ...

حياة رافهة منعمة ... وخدم وحشم ... وعبيد

— ٥٩ —

وأحراس ... ونحن الدعاة إلى البساطة والتقشف ،
إلى الإعلاء من شأن الروح ، إلى تطهير الجسد
من نزواته الجاحشة ...

فقال في صلابته :

الإعلاء من شأن الروح بإهمال الجسد وتعطيل
مطالبه ، غلواء لا تحمد عقباها ... لا بد من مزاجية
ومداخلة ، لكي تتوافر لنا حياة سوية لا شذوذ
فيها ولا حرمان ...

— أنت بأقاربك هذه تهدم ما بنيت لك .. مارسمت أنا

« بتاح ، ... « بتاح ، رائد هذا الدين ...

— صه ... لا تسم نفسك هذا الاسم الأعظم ، وإلا فتك

بك عابده ... تعقل ولا تسكن جامدا ، تعاكس

بأحلامك الموهومة تيار الواقع الجارف ... تخير لك

— ٦٠ —

اسماً آخر إن طلبت بين قومك معاشاً ...
وسكت لحظات ، ثم أكل قوله :
ما رأيك في اسم « بتاح - حتب » ؟ ... اسم لا يبعد
بك عن اسمك ولا يثير عليك سخط الخلق ...
فحككت يدي على صدري ، وقلت :
من تحسبني يا « سنسكرع » ؟ أحسبني طفلاً يتلق
النهـمـح ؟ ...
فقال في جد :

أسميت يا « بتاح - حتب » ، أنى رئيس كهنة « بتاح »
الإله الأعظم ؟ أنا صنو فرعون ... صاحب الملك
والسلطان ... أملك من الأمر في البلد كفاء ما يملك ...
لا تسكن عنيد المراس ، صعب القياد ، وتقبل منى
ما يتيح لك عيش الحرية والكرامة ...

- ٦١ -

— وإذا لم أذعن ؟ ...

— سأخطر إلى ما لا تحمد ...

ثم أزهرت عيناه ، كفسر عتي ، وقال في لهجة المتوعد :
إذا أعلنت من أمرك غير ما أشرت به عليك ،
فلن تجد لك مصدقا ، حتى أتباعك القدامى ... لن
يمضوا في تبارك مهما تفعل ... إلى الأمر الناهى ...
كلمتي هي العليا ... لقد استتب الأمر للدين على
الوجه الذي انتهى إليه ، وارتضيناه أجمعين ،
ولن تستطيع أنت ولا غيرك له تبديلا
ولا تحويلا ...

ودرنى هزة عنيفة ، واستأنف قوله ، وهو ينفذ
بنظراته في عيني :

أ. دل الستار على ماضيك ، وابدأ صفحة جديدة

- ٦٢ -

باسمك الجديد . سأستعينك ما أردت ... سأعينك
كل العون ... فكر فيما قلته لك يا « بتاح - حتب »
وتوخ سعادتك وسعادة ريبيتك ...
وحياي مودعا ، وزايل الحجرة ، يرفل في حلتة
الثينة . . .

٧

اليوم أهاذن « سنكرع » ، ولكن مهادنتى له إلى حين ،
 ارتضيت أن أسمى « بتاح - حتب » ، حتى لا أثير ثائرة
 القوم ... إنهم ليعتقدون أن « بتاح » قد ذهب شهيد رسالته
 المقدسة ، وأنه كوفى على ذلك بأن استحال لها ، هو
 معبود الدين الجديد ، وذلك تمثاله يتصدر المعبد ، يتلقى من
 حوله قرابين المؤمنين ، ويتسمع إلى ما يجأرون به من
 حضاعة وإبتال ...

ولقد عرض علىّ رئيس السكينة « سنكرع » أن أنخذ
 مشواى أنا و « نفرت » فى جناح من المعبد يطيب المقام فيه ،
 فأبيت ، وقنعت بحجرتين ضيقتين عاريتين من الأثاث خلف
 المعبد ، إحداهما لى ، والأخرى لـ « نفرت » ...

ولم تطوِّع لى نفسى أن أستبدل بملابسى المنسوجة من
الآلياف ، وكذلك احتفظت « نفرت » بثيابها البالغة
السذاجة ... أما الطعام فكنا نعدّه بأيدينا ، ونسكتفى منه
بما يقيم الأود ... وهكذا واصلنا فى « أنب - حز » حياتنا
التي كنا نحياها مع الشيخ « كاي » فى الواحة الخضراء ، حياة
النسك والزهادة ، حياة من يؤثّر السمو الروحى على توافه
الدنيا وقشورها البراقة ...

أما العبد « رخت » والأمة « خنوت » اللذان أقامهما
« سنسكرع » حارسين يتعهداننا بالخدمة والرعاية والرقابة ،
فكانا زوجين ، جاززا عصر الشباب ، يضمهما مسكن خاص
على مقربة من المكان الذى نأوى إليه . وكانت الأمة
« خنوت » ثرثرة فى طبعها فضول ، وطالما جلست معنا
تصف لنا « أنب - حز » ومعبدها العظيم ، وتروى لنا أشتاتا

— ٦٥ —

من أفاصيص الناس . ثم تنهري لاستطلاع أخبارنا ، فكنت
أفنى إليها بشذرات من حياتي وحياة « نفرت » في صحبة
القديس « كاي » .

واطمأن « سنسكرع » إلّ ، لما آنسه من أني أمارس
عيش النساءك ، وأنى عن الدنيا عزوف ، وللتناس معتزل ،
فاطلق لى حرية الخروج من المعبد فى الفينة بعد الفينة .
وكان القلق يساور « نفرت » بأدىء بدم ، ولكن
عاردها الهدوء لثقتها بما أقول ، إلا أنه هدوء صامت يغشاه
تأمل أقرب إلى الذهول . وكثيراً ما كانت تتحدق فى وجهى
بلا كلام ، كأنها تسألنى : أهذا ما كنت تطمح إلى تحقيقه
فى « أنب - حز » ؟ أإله أنت أم لإنسان يا « بتاح » ؟
فأربت يدها ملاطفاً ، وأقول :

أنا الآن « بتاح - حتب » يا « نفرت » ، ولزام أن أكون

— ٦٦ —

كما أرادوا لي حتى تنكشف الأمور على حقيقتها ... علينا
أن نصطبر !

وكنت أمضى معها الوقت نتذاكر شئون الدين ،
ونصلي للإله الحق نور الأزل ، عسى أن يهبونا من لدنه
بالعون والتأييد .

وكانت « نفرت » تعيش معي ، كأنها ظل لي ، أحس
روحها متعلقة بروحي ، وأضحت رياضتنا المختارة أن نجلس
خلف المعبد ، نفترش الحصباء ، أو نضرب في بسيط
الصحراء ، متجنبين منطقة الحقول والبساتين الممتدة على
شاطئ النهر الدفاق ، حيث تزدهو الحضارة ويتغلغل العمران .
وتعودت من « نفرت » أن أراها ، وهي سائرة بجاني
مصفية إلى حديثي ، تنكس رأسها ، فأحوطها بذراعي ،
أغمرها بحنان أبوي فياض ...

-- ٦٧ --

كم كانت عذبة تلك الزهات الحلوية التي كنا نستمريء
فيها السعادة الحققة ، من طهر نفس ، وصفاء روح ، وقوة
إيمان ...

وقد عرفنا سكان المنطقة في تجمعاتنا المتكررة ، وعدونا
من الزهاد الغرباء الذين يتنكبون عن لقاء الناس .



في ضحوة يوم ، فوجئت بمقدم «سنكرع» في أبي
حلة وأزهي زخرف ... ثوب من الحرير الموشى ، ونطاق
بالذهب على ، وشملة حمراء تتوهج ، وعلى الرأس طرطور
مستطيل مثاث الأركان ملون الخطوط ، ومن أعطافه يتضوع
عطر نفاذ ...

دنا منى هادىء الالباسام ، يقول :
اليوم يقام احتفال مهيب في اليهود الكبير ... وإني أدعوك
إلى شهوده يا «بتاح - حتب» ...
ولم تكن قد اى قد وطئت أقدام المعبد ، بل كنت
أنحاشاها ... وما عرفت من بناء المعبد تفصيلا إلا هاتين
الحجرتين اللتين اتخذتهما أنا و«نقرت» مقاما ...

— ٦٩ —

أجبت الداعي بقولي :

لم تريدني على أن أحضر هذا الاحتفال ؟ ...
... إنه احتفال مهيب ، نبدأ به عيدنا الكبير ... عيد
الشباب ... عيد التعارف والتآلف بين الفتیان
والفتيات ... عيد الزواج في مودة ورحمة ومصافاة ...
نحييه كل عام مستمدين من الإله « بتاح » أن يبارك
لنا في النسل ، ويعمنا بالخير ...
وصمت لحظات ، وهو يخالسي النظر ، ولما ألقى ماكن
بالنفس ، لا يهزني قوله ، وأصل حديثه :
إنه عيد أيام متوالية ، خلالها تعقد الزوجيات بين
الشباب في مهرجانات شعبية عظيمة ... حضورك
هذا المهرجان يتيح لك أن تشهد زهرات الشباب
وهي في نشوة عبادتها ، فتتجلى لك عظمة الدين ،

— ٧٠ —

وترى كيف رسوخ العقيدة في قلوب الناس ...
سنزور الآن بهو الاحتفالات ، حيث يقام حفل
اليوم والحفلات التالية ، والبهو الآن خال من الزوار ،
فالفرصة سانحة لأن تملأ عينيك بما يحويه من روائع ،
ولك بعدئذ أن تشهد الحفل في المكان الذي تختار ...
وأمسك بيدي وسار بي ، وأنا صامت تعتلج بين جنبي
الاحاسيس ، وتصطرع في رأسى الخواطر والأفكار ...
وانثنينا نخترق دهاليز طوالا ملتوية ، كأنها أجواف
الثعابين ، وكانت المسارج الزيتية الموقدة تجاهد عبثاً في مقاومة
الظلمة الغاشية ... وتراحت لى بعض مراديب ضيقة تنشعب
من هذه الدهاليز ، غارقة في ظلام وصمت ، يفوح منها حنوط ...
لم نتبادل خلال مسيرنا حديثاً أى حديث ... وانتهى
بنا المطاف إلى فناء رحب ، يظلمه سقف رفيع ، مقام على

— ٧١ —

أعمدة ضخم ، وفي جنباته ظلية رقيقة كأنها غبشة السحر ...

ومال على « سنكرع » يقول :

ها نحن أولاء قد بلغنا هو الاحتفال ...

ودرت ببصرى يمتة ويسرة ، فهالني ما أشهد من فخامة ...

كانت الأرض تحت أقدامنا سوداء ملمساء ، لها بريق أخاذ ،

والجوائط والحمد من حولنا حمراء عليها نقوش زرق ...

وأحسست يد « سنكرع » تأخذ بساعدي ، وتنحوي بي

ناحية ، وهناك طالعني تمثال سامق ضخم ، على هيئة

إنسان ، وانف وقفة إمرة وسلطان ...

وألقيت « سنكرع » يركع أمامه في تخاشع ، ويرتل

أدعية وصلوات ، ثم عاد إلى وقفته بجانبى ، فقلت له ، وعيناي

شاخصتان إلى التمثال :

لمن ركوعك يا « سنكرع » ؟ ...

— ٧٢ —

— للإله «بتاح» ... إلهنا الأعظم ...

فبدت على شفتي ابتسامة ساخرة ، وقلت لرئيس الكهنة :
وماذا كنت تتفوه به ؟

— صلاة تحية ، أستقبله بها .

فقلت له هلي الفور :

أمرؤا بي يا «سنسكرع» ؟

فأجاب :

كلا !

فصحت :

أتؤمن بهذا الإله يا رجل ؟

فلم يحرجوا .

فكررت :

قل .. مامبلخ إيمانك بما تقول وما تفعل يا «سنسكرع» ؟

- ٧٣ -

فربت كتفي ، وقال رزين الصوت :

لا مناص من الإيمان ... يا دبتاح - حتب ، .

- أتعنى أنه لا مناص من الإذعان للأكاذيب

والضلالات ؟ وكيف تتجلى الحقائق إذن ؟

- ما كل حقيقة يجب أن تقال ... ولكل شيء أوان !

فعلا صوتي قائلا :

جدل زائف ، ومهارة جوفاء !

والتفت إلى الشمال أنامله ، وأنا صامت مأخوذ .. ثم قلت :

لقد أجدتم صنعه حقا إنه هائل ... رائع ...

عظيم ... إنني أحس ضالة شخصي بجواره ...

يا للسخرية !... الحقيقة تافهة متخاذلة ، على حين

تغدو الأكذوبة في بهاء ورواء !...

وجاشت نفسي ، والتفت إلى منكرع ، أقول :

-- ٧٤ --

دعنى أبارح المكان ...

— ألا تبقى لتحضر الاحتفال ؟

— أكاد أختنق ...

وتلفت حولى ، أستبين الباب ، فما إن وقع عليه بصرى ،

حتى دفعت بخطاى نحوه ، وسرعان ما نفذت منه أستقبل.

فيض الهواء والنور !

٩

ماكدت أخرج إلى الساحة حتى ألفيت جماهير الفتيان..
والفتيات يحتشدون حول المعبد ، تنبدي مباهج العيد عليهم
في حللهم وحلالم ، ومن شعورهم الفاحمة المرجلة يفضوع عقب نفاذ ،
وبأيديهم خصل الرياح بها يلوحون في طرب واستبشار ...
سرت حديث الخطا ، متعاشيا أن أخالط الزمر ، واتخذت
سمتي إلى المنطقة الجرداء الخالية من العمران ، ورحت أضرب
فيها على غير هدى ، وأنا فريسة لأفكار متضاربة ...

يالى من « منكرع » ...!

أى رجل ذاك ؟ ...

أمضلل هو يكذب قصداً ، ليستمع بما هو فيه من
وجاهة ورفاهة ، ومن إمرة وسلطان ؟ ... أم قد غدا صريع

أرواح الشر ، عششت في جسده ، فبدلته خلقا آخر لا يمت
بصلة إلى خلقه أول مرة ؟ ...

توطدت أكذوبة الإله ، بتاح ، فأضحت حقيقة مسلماً
بها ... أفأرضى أن أتابع حياة النفاق والخداع في هذه
المدينة ، وأنا الذى وهبت نفسى لتبديد الأوهام ومحاربة
الأكاذيب ، تمهيداً للحقائق الخالصة أن يعلو مزارها ؟ ...
أفأرضى أن أبقي هكذا على هامش الوجود لا شأن لى
ولا بال ؟ ... إلى متى الصمت والجلود ؟ ... ألا أصدع بالحق
وأدافع عن الحقيقة الأصيلة ، وإن لقيت في سبيل ذلك
حتفى ؟ ... وهفرت ، ريديتى ... ماذا هى صانعة بعدى ؟ ...
أليس من واجبي أن أعيدها إلى واحتنا الحبيبة ، وأن أحيا
معهما في جوارى ، كاي ، حياة زهد وعفة ، حياة نقاء وصفاء ؟ ...
وطال تجوالى ، وأنا أضرب في متاهات ومجاهل ، والشمس

تلمبني بسياطها الحامية ، والرمال من تحت قدمي تسكاد
تشويهما شيا ...

ولاحت لي من بعيد خربة ... فهرولت نحوها ، ولما
دانيتها ألفتني أمام فجوة ، لم أتردد في النزول إليها ... وبدأ
لي على الفور أنها أطلال مقبرة عني عليها الزمن ، ووجدتني
أتهوى وأنا أحس برد الراحة في جوف هذا المكان المظلم
الرطب ، وما أمرع أن شماني خدر ، أسلني إلى رقاد ثقيل ...
وحين استيقظت ، وبارحت المقبرة ، تبين لي أني قضيت
ساعات وأنا في غيوبة النوم ، إذ كانت الشمس وقتند تؤذن
بالمغيب ، وصفرة الأصيل تخضب حواشي الأفق ... وانتظمتني
وعادة ، وانطلقت في عجلة ، مسترشداً بوحى بصيرتي أستعينها
على بلوغ طريقى العود ...

وبعد لآي طالعتني ذلك البناء الشامخ ، معبد الإله

— ٧٨ —

« بتاح » ... تتطامن خلفه أبنية المدينة وبساتينها الحالية ...
وتراءى لى الباب الخلفى ، حيث يقوم مسكنى ، وعليه تجلس
« نفرت » بجوار رجل أجهله .

وما لحتنى « نفرت » حتى هرعت إلى قترامى على صدرى ،
شرقة بالدمع ، وسمعتها تغمغم :

كيف نتركنى وحدى طوال هذا الوقت ؟
فطوقتها بذراعى فى حنو ، وقد فاضت مشاعرى ، وقلت :
ضاللت طريقى وأنا أجوب اليبداء ، فأرهقنى السير ،
فرقدت فى فجوة وملكنى نعاس ...

فسمت برأسها إلىّ ، ومسحت وجهها تقول :
أين أصبت طعامك ؟

— لم أطعم شيئاً .

— ولا أنا أيضاً ... لقد أعددت الغذاء ، ولم أذق منه

— ٧٩ —

قليلا أو كثيرا ، منتظرة أوبتك ...
وأخذت بيدي كما تأخذ الأم بيد طفلها ، ووقع بصرى
هلى الفتى الذى كان يجالسها ، فقلت :
من هذا ؟

— لا معرفة لى به ... ألفتى بالباب أرقب عودتك ،
وأنا قلقة حيرى ، فكث معى يسامرنى ويسرى
عنى ... إنه من يحتفلون بالعيد .

وتقدمت من الفتى أحبيه وأشكره ، فقال لى :
لنى يا عمى أدعى « بشكاو » ، وقد أسعدنى الإله « بتاح »
بلقاء ابنتك « نفرت » ، فقضيت معها وقتا هائلا ...
وكان الفتى فارح العود ، عريض المنكبين ، مبتلأ بالقوة
والحيوية ، وأما نظراته فنفاذة بجادة ، تدل على اعتداد
واجترأ . وبدأ لى أنه ميسور الحال . ولما ألفتى مرهقا

— ٨٠ —

أنشد الراحة ، حيانى فى أدب نحية الانصراف .
ودخات ومعى « نفرت » ، إلى ممسكتنا ، وتناولنا طعامنا
المتواضع ، مفترشين الحصير ، وأماننا جرة الماء ...
وبينما نحن نطعم ، سألت فتاتى :
ماذا قال لك الفتى « بنكاو » ؟

— حدثنى حديث العيد ، ووصف ما يتجلى من مباهج
فى المدينة ، وما يزدحم من أشياء معروضة فى
الأسواق ... كان حديثه عجيباً ، واقده اختلط بعينه
ببعض فى سمعى ، واكتظ به رأسى ...

— لا تتعجب فـ فكرك يا ابنتى « نفرت » بمثل هذا الحديث ...
ليس ثمة فائدة ترجى منه ... إنك بعيدة كل البعد عن
تلك الدنيا الصاخبة التى حدثك الفتى حديثها المهرش ...
أنصح لك أن تنفضى سمعك من كل ما قاله لك « بنكاو » ...

— ٨١ —

فغممت :

سأفعل يا أبي ...

وعندما احتواني فراشي ، وتلبست الرقاد ، وجدتني قد

ألم بي الأرق ، وخاصم النوم عيني ...

ظل طيف هـ بنكار ، لا يهرب عن مخيلتي ، سواد ليلتي ا

١٠

وفي الغداة مضيت مع « نفرت » إلى المنطقة الجرداء ،
نحوس خلالها بعض وقت ، لتجنب جموع الشباب الوافدين
على المعبد من كل فج ، احتفاء بالعيد ... وكنا نسير الهوينى
مستغرقين في تأمل وتفكير ، وربما قطعنا الصمت بأحاديث
قصار نلبادها في اقتضاب ...

وارتسمت على وجه « نفرت » أمارات سهوم وشروء ...
أما أنا فقد نارشنى قاق خنى ، حارلت أن أصرفه عنى عباء .
وثقلت خطا « نفرت » ، فسكانت كأنما تقناع قدميها
اقتلاعا ، فلت عاها أقول :
ما خطبك يا « نفرت » ؟ ...

فأجابت وهى تفضط جبهتها بيدها :

— ٨٣ —

لا شيء ... لا شيء ...

— أمتعة أنت ؟ ...

— قليلا ...

وحدات تضغط جبهتها ...

— إذن نعود ...

— لا ... لا تفسد عليك جولتك ...

— حسبنا ما قطعناه من شوط ... الشمس شديدة

السطوع ، حامية الشعاع ، فلنعد ... سنقضى يومنا

في مسكننا ، حيث الجو رطب ، والضوء خافت ...

سننأى عن صخب المجد وضجيجه ...

فقال في نبرة استسلام :

افعل ما تراه صالحا ...

وواصلت الحديث أقول :

— ٨٤ —

إن مثل هذا العيد لم يخلق لنا يا بنية ... عيدنا قائم
في قلوبنا ... نحتفى به وقتما نريد ... هو عيد الصفاء
الروحى ، والبراءة النفسية ... لا شعائر ولا مراسم
ولا أهبة جوفاء ...

فأمنت على قولى دون تردد ...
وشارفنا المعبد ، فألفينا ثلاثة شخوص يترامون أمام
الباب الخلفى ، حيث نساكن ...
تدائينا منهم ، فتوضحت سماتهم ... كانوا هم العبد « رخت »
والأمة « خنوت » ، وقى الأمس الوسيم « بنكاو » . فهمهمت
ضائق الصدر :

لأنهم لا يدعوننا فى سلام ...
فقال « نفرت ، خافضة الصوت :
وما شأننا بهم ؟ ... »

— ٨٥ —

وأقبل « بنكار » رافع الرأس ، ثابت الخطو ، على محياه
يلوح لإشراق ... وحياني في لباقة ، وما أسرع أن أخذ بيد
« نفرت » وسأيرها يتحدث إليها ويتودد ...

واجتمعنا نحن الخمسة عند الباب ، وسمعت « خنوت »
تقول ، وهي تنظر بمجامع عينها إلى « بنكار » و« نفرت » :
ما أبهى شبابهما ... لسكانهما عودان أخضران من
القمح الباضج ينموان من أرومة واحدة ...
فابتسم « بنكار » قائلا :

سعيد أنا بقولك هذا يا « خنوت » ...

ولم يلبث أن انجه إلى قائلا في تحجب :

أيها السيد العظيم « بتاح — حتب » ... نحن كما تعرف
في عيد الشباب ، وإن للشباب في عيده هذا حقوقا
مرعية ... وإني ليسعدني أن أتخير « نفرت » صاحبة

— ٨٦ —

لى ، أفضى معها كما تخولنا تقاليد العيد يومى هذا ،
 نستمتع بمباهج المهرجان ، ونشرك الشباب من أترابنا
 ما يهناون به من مرح وإيناس ...
 وأدهشتنى جراته ، فنظرت إليه لحظات لا أحير جوابا ،
 ثم أدت بصرى إلى « نفرت » فوجدتها مسجلة الجفنين ،
 أنفاسها تتلاحق ...

ولما استعدت جأشى ، قلت للشباب :
 شكراً لك على دعوتك يا « بنسكاو » ... ولكن
 « نفرت » ليست من أهل المدينة ... نحن من الغرباء ،
 ولا عهد لنا بمثل هذا المهرجان يا بنى ...
 فقال جهير الصوت :

لا يمنع هذا من اشتراك « نفرت » فى المهرجان ...
 ستكون هى فى صحبتي ، وسأكون لها خير راع

ورفيق ، ولن تلبث أن تألف مظاهر العيد ...

وباذرت « خنوت » تقول :

ما أسعدنا فتاة تلك التي يتخيرها السيد « بنكاو » ،

اترافقه في التفرج بالعيد ... لأنه من شبابنا المتفوق ،

ومكانته في المدينة مرموقة ...

فقال « بنكاو » ، الأمة « خنوت » ، وذراع « نفرت » في يده

يشدّ عليها ، كأنه يخشى أن تفلت منه :

أنت كبيرة القلب يا « خنوت » !

فأبهرت « خنوت » في حديث موصول ، كأنه فيض

لا ينضب ، تسبغ فيه على « نفرت » و « بنكاو » ألوان

الإطراء ، وتضرع إلى الإله « بتاح » أن يبارك تلك الصداقة ،

حتى تؤتي أكلها طيباً ...

ونارت حفيظتي ، فاتجهت ببصري إلى العبد « رخت »

— ٨٨ —

كانى ألوذ به ، فإذا هو صلب السحنة ، لا تصدر عنه
نأمة ، لو حسبته تمثالا من صوان لما كان فى ذلك من غلو
ولا إغراق ...

ونظر إلى « بنكاو » يقول :

ألا تسبح لى بمرافقتها يا عماه ؟

وكانت الزمر من الفتيان والفتيات يهرون بنا ونحن
وقوف ، فتلسكا حولنا بعض منهم استرحت أنظارهم غرابة
هيات أنا و « نفرت » ، ثم ضربوا علينا نطاقا ...
وأجبت « بنكاو » بقولى :

لن تكون « نفرت » سعيدة برؤية هذا المهرجان ...
وصاح فى لهجة وثوق واعتداد :
تيقن أنها ستسعد كل السعادة ...
وسمعت أحد الفتيان يقول :

— ٨٩ —

اسألوا الفتاة لنبدى رأيا ...

وتسكشت « نفرت » باديا عليها الذعر ...

ومال عليها « بنكار » ، وقال لها فى صوت المتحزن :

ألا ترغيبين أن تصاحبينى يا « نفرت » ، لنجول معا

فى مهرجان العيد ، وأطلعك على ما فيه من غرائب

وعجائب ؟ ...

فشلت هى لحظات معقودة اللسان ، وقد ازدادت من

انقباض ، ثم جمجمت وشفتاها ترتجفان :

إنى خائفة !

فضحك « بنكار » ضحكة عامرة ، وقال فى صولة واقتدار :

لا خوف عليك وأنت معى !

وفى طرفة عين ، ألفتته يحمل « نفرت » بذراعيه

القويتين ، ويقفز بها متخلييا الجمع من حوله ، وقد ارتفعت

— ٩٠ —

من كل صوب أصوات تهلل واستحسان ...
 وشاهدت « بنكاو » يحدو بها ، وهى فى حضنه ، يلفها
 بذراعيه ، وسرعان ما طواهما الزحام ...
 ثم ذلك فى لحظات متلاحقة ، لم تدع لى فرصة تديب
 وإعمال فكر ، فشهدت ما جرى جامد الأوصال لا أنبس ،
 ثم ألفتى بغتة أنطلق ، وأنا أصبح مردداً :
 اتركها أيها الفتى الجرىء ... اتركها بسلام ، وإلا
 دقت لحك ، وسحقت عظمك ...
 وتعال أصوات السيفرية ، وواصلت عدوى ،
 وأنا أتصايح كأتى مخبول ...
 وتكاثفت دونى الجموع ، تصدنى عن متابعة السير ،
 وضاع من عيني شبح « نفرت » وصاحبها على الطريق ...
 ووجدتني أتهالك على الأرض ، فسارع إلى بعض

— ٩١ —

الصالبة ، ينفضونى ، وينفضون الزهار عن ثوبى ... وتقدم
منى شيخ جعد البشرة ، سمح الطلعة ، وأخذ بذراعى بعيداً
عن زحمة الناس ، وقال لى فى رفق :

أيها الرجل الصالح ... ماذا بك ؟

— اختطف أحد الشباب ابنتى ، ومضى بها إلى
المهرجان ...

... وفيم غضبك ؟ دعمهما وشأنهما ... لماذا تقف حجر
عثرة فى سبيل سعادتهما ؟ ... ثق أن الإله « بتاح »
يرعى هذا العيد ويباركه ، فلن يقع فيه ما يوصوه ...
اترك الشباب الشباب ... ولتكن سعادتنا فى هذا
العيد أن يسعد أبناؤنا ...

فتوليت عنه شاكراً لِمياه ، وحثت خطاى نائياً عن
أعين الناس ، وفى نفسى شعور مهانة وخزى ...

— ٩٢ —

كانت المنطقة الجرداء ملاذى ، دون أعرف لى فيها وجهة
سير ، وتضاربت الأفكار فى رأسى : أترانى أخطأت فى
تصرفى ؟ وكيف جمحت به مشاعرى هذا البهوح ، فلم أستطع
لها ضبطا ؟ كيف سمحت لنفسى أن أتورط فيما جلب على
السخرية والاستهزاء ؟ أكان على بادية بدء أن أسمع عن
طواحية ورضا لريبتى « نفرت » بمرافقة « بنكار » ، بجارة
المتقاليد القوم فى هذا العيد ؟ ...

وعادت جملة الشيخ الوقور تن فى سمعى :
« اترك الشباب للشباب ... ولتكن سعادتنا فى هذا
العيد أن يسعد أبناؤنا ... »

أترى تجد « نفرت » سعادتها فى صحبة شاب مثل
« بنكار » ، ملء نفسه غرور وعنجهية وخيلاء ؟ وماذا
من أمرى أنا الذى سويت نفسها ، وطهرت روحها ،

— ٩٣ —

وجعلت منها قديمة تنسأى إلى أعلى مراتب الآلهة ؟ ...
 وألهبت الأفكار رأسى ، وألفيتنى فجأة أمام فجوة المقبرة ،
 فلم أتردد فى اقتحامها ، وتهاويت على الأرض ، وجعلت
 أحرق فى السقف المشقق ، وأنا أستعيد ما مر بى من
 أحداث ، وأحسست فى وجدانى بمرارة ، وفى حلقى بنفصة ،
 وإذا أنا أعرونى نوبة بكاء ، ويشتد بى نشيج ... وسرعان
 ما خدرت أوصالى ، وامتلكنى سبات ...
 واستيقظت متفزعا ، قلقا على « نفرت » ، فزائلت
 الخربة ، واتخذت إلى المعبد طريقى على عجل ...

١١

وقفت بباب المعبد الخلفي ، أرقب إياب « نفرت » ،
[وأمتد بي الانتظار ، وتزايدت مخاوفي ...

وبينما الشمس تميل نحو الغرب ، والظلال تتطاوَل في سرعة ،
[وهواء الأصيل يلطف ويرق ، لمحت شبيب « نفرت » في
صحبة « بنكاو » ، فتقدمت أستقبلهما ، واسترعى نظري على
الفور أنها قد اكتست حللة العيد ...

وصاح بي « بنكاو » :

أيها السيد العظيم ... لم يكن لما توهمته أساس ...
تلك هي « نفرت » تعود إليك سالمة غائمة ... قضت
يومها في بهجة وانشراح ...

فهممت :

— ٩٥ —

حسنا ... حصنا ...

وعدت إلى المعبد ، ومعى « نفرت » ، بعد أن ودعها
« بشكوى ، قائلاً لها :

سألقاك صبح غد ... طاب ليلك ...

وفي الحجرة ، كانت فلول أضواء النهار توشك أن تهرب ،
وعيني تتحدق إلى « نفرت » دون كلام ، فقالت لى خافثة الصوت :
أحانق أنت على ؟ ...

— كل ما يعنينى أن أطمئن إلى سلامتك ...

— إني بخير ... فلا تشغل بالك ...

— هل استمتعت بيومك ؟ ...

فنظرت إلى « فى براءة » ، قائلة :

لا أكذبك القول ... كان يوماً طيباً ...

— كنت مخطئاً فى هواجسى إذن ! ...

— ٩٦ —

— لم يحدث شيء يسوءك ...

— ما رأيك في «بنكاو» ؟ ...

— رفيق مهذب ... نعم الرفيق ! ...

— ما دام هذا قولك ، فعلى أن أصدق ...

وكانت «نفرت» تتألق في ثوب كتاني أناصع ، وحول
خصرها نطاق مقصب ، وعلى جبهتها عصاة وردية ، ومن
جيدها تتدلى قلادة تحلى الصدر ... فقلت وأنا أتملاها :

قهى على كيف قضيت نهارك ؟ ... لا تخفى عني شيئاً ! ...

— سأقص عليك كل ما جرى ، لا أكتنك قليلاً

أو كثيراً ... أنت علمتني الصراحة ...

— تكلمى ...

— كنت أول الأمر ساخطة على «بنكاو» ، منكرة

عليه أن يقمضى في المهرجان ... بيد أنه حاطنى

— ٩٧ —

برعايته وحنانه ، وأكّد لي أنه يعيدني إليك معززة
مكرمة ، وأنتك لن تنضب عليّ أو عليه ... بل ستشكر له
أن توخي راحتي وإسعادي ...

— ثم ماذا بعد ؟ ...

— حملني إلى داره ، وأسلمني إلى أمه ، وهي كريمة
عطوف ، فتولت زيني ، وعطرتني ، وجهزتي بجهاز
العيد ، وهو ما ترائي أرنديه ...
وصمتت هنيئة ، ثم قالت :

أخشى ألا تكون راضيا عن مظهري ... أحق
ما أخشى ؟ ...

— أنت تعلين رأيي في الزخرف والترف ...

— هذا زى العيد ، ولن ألتذه لي زيا عقب المهرجان ...

— أتمنى قصتك ...

— أصبنا غداءنا نحن الثلاثة ، وكان غداء جيد الطهو ،

سائغ الطعم ، وتحدث : بنكاو ، وأسه إلى سديثا
أنيساً أزال وحشيتي ، ثم شرجي ، بنكاو ، إلى ساحة
المرجان ، والناس يموجون فيها موجاً ، كأنهم دوامة
هائلة ، ورأيت من المشاهد عجائب أثارَت بين جنبي
مشاعر لم يكن لي بها عهد ...

— ماذا رأيت يا « نفرت »؟ ...

— أشياء كثيرة ، من ألعاب ، ومهرجين ، وسحرة ،
وثعابين ، وقرودة ... وسلال فاكهة ، وكومات
أسماك ، وفطائر ساخنة ... إلى جرار تفيض بالشراب
الحلو المذاق ... وغير ذلك كله ... ويا لمنظر النخيل
الجميل ! ... ويا للأزاهير تفرش الأرض كأنها المصير ...
ولقد شهدت في كل ناحية حلقة رقص ، حتى
خيل إليّ أن الدنيا من حولي كانت ترقص ...
ففتلرت إليها في شغف ، وقاطعتها قائلاً :

وَأنت ... هل رقصت ؟ ...

— أخذ « بنسكاو » ييدى ، واندفع بي في حلقة راقصة ،
ودسنا نرقص ونرقص ... فأكل ثم نرقص ...
ونشرب ثم نرقص ... والمزامير والطبول والدفوف
من حولنا تتناغم ... وأخيراً تعبنا ، فارتمينا على
الأزاهير نستريح ، ووسدنى « بنسكاو » ذراعه ،
ولاطف خصلات شعرى ...

— وماذا أيضاً يا بنية ؟

— طبع على جبيني قبلة !

فرايتنى أتعماج في هيجة ، وأنا ألوح ييدى :

صمتاً يا شقية ... كفى !

فأصاها دعر ... ونظرت إلىّ تنسأل ... ووجدتني
أتنامى عنها وأنتحى ناحية الطاق ، أعتصر رأسى ييدى ...
أقتربت منى « نفرت » في خطأ حذرة ، وهى تهمس :

— ١٠٠ —

أتظننى أسأت فى شىء ؟ ...

فهممت ، وأنا أحاول أن أزيغ ببصرى :

ليتك لم تصدقنى القول ا ...

— لماذا ؟ لماذا ؟ ...

— لا أدرى يا د نفرت ، ... أخشى أن أكون فى

قولى هاذا ا ...

— لا ... أنت لا تهذى ... إنك لا تقول إلا حقا ...

ولا تنطق إلا صدوبا ... كلامك كله هداية وإرشاد ...

إن كنت ترانى قد أخطأت فى شىء ، فلا تسكتم

عنى ... ارسم لى الطريق الذى يجب أن أسلكه ... إني

حواريّـتك ... إني ابنتك .. أكان فى تصرفى ما يريب ؟

— لقد شببت عن الطوق يا د نفرت ، ... وأنت فى

غنية عن النصيح ... افعلى ما يوحىه إليك ضميرك ...

عليك نفسك ...

— ١٠١ —

فتعلمت بصدري قائلة :

لا ... لا تركني وشأني ... إذا شئت ألا ألتقي
« بشكاو » فرني أطع ...

واندفعت تبكي ، وهي متشبثة بعنق ، أحر بكام ...
« إذا قواها تخور ، وإذا هي تتهادى ، فانسكيت عليها أحملها ،
وسرت بها وثيداً إلى حجرتها ، ثم مددتها على فراشها ،
وأنا أقول :

كان اليوم عصبياً عليك يا « نفرت » ... اهدئي ونامى ...
فقالط مطابقة الجفنين :

أما زلت ناقما منى ؟ ...

— ثقي أنى لا أنقم منك أبداً ... إن قلبي عامر بالرضا
عنك على الدوام ...

فلاحت على وجهها ابتسامة ، وتحركت شفتها
بكلمات لا تبين ...

- ١٠٢ -

واتخذت مكاناً عن كسب منها ، آملها وهي في ثيابها
الأنيقة ، تستقبل طائف الأحلام ...
لبثت عيناى لا انفارقان عيناها ، وكان ضوء القنديل
الشحيح يضيء عليها سحرا خلايا ...
ودانيتها ، أربّت خصلات شعرها ...
ثم انحنيت على وجنتها أطبع قبلة حارة مديدة ...
وما فعلت حتى أدبرت عنها ، وأنا ألم شعنى ، قاصداً
حجرتى ، يسد أنى لم أطق فيها مكثا ، فخرجت فزعا إلى
الفضاء ، أضرب فى الليل الداجى على غير هدى ،
ومشاعرى تتلهب ، وأفكارى تصطرع ، وكل تصوراتى
مهوشة متداخلة ، كأننى وافد الحمسى ...

١٢

ما أسوأها ليلة أمضيت أكثرها هائما على وجهي ،
وأويت في أخرياتها إلى فراش لم أظفر فيه ببقعة هادئة
ولا بنوم مريح ...

كان طيف « نفرت » يحاصرني ، أراها في ثوبها الأبيض
الناصع ، تتلأأ عليها حليها الزاهية ... لم أتد « نفرت »
تلك العلة الغريبة ذات المظهر الساذج الحسن ، فهي تتجلى
أمام ناظري اليوم حسناء فائقة ...

مالى أجدها تثير في أعماقي أحاسيس كامنة ، تتوجس
نفسى خيفة منها ؟ ...

ماذا ؟ ...

— ١٠٤ —

أما زالت تقبع في قرارة كياني البشرى جذور من روح
الشر ، وأنا الذى لم أدخر وسعاً في تهذيب وترويض ،
حتى حميت أنى قد برئت من كل أثر للشر ، ومن كل
سلطان له على ؟ ...

لكانى بهذه الأحاميس البغيضة تتأهب لانبعاث جديد !
لا ، لن أسمع لها بأن تنمو نموها الذميم ...
وما بال هذا الشبح الأسود ، يتربص « بنفرت » يريد
اختطافها ، يريد أن يستأثر بها بين ذراعيه أبداً ؟ أيجب
أنى تاركها له ينالها في سهولة ويسر ؟ ...
ما كنت أقدر أنى أمقته كل هذا المقت ، وأنا الذى
وقفت حياتى على التبشير بالحبة والساحة والمصفاة ...
أخطيء « بنكاو » حقاً ؟ ...
أشير هو حقاً ؟ ...

— ١٠٥ —

أم ... أنا المخطيء الشرير ؟ ...

وتهاطلت على التصورات والأفكار تستغرقني ،
ودارت حول الأطياف شتى ، بين مشرق أنيس وآخر
موحش كريحه ...

وصباحاً نهضت من فراشي موطننا عزى على أمر ...

لأنه قرار حاسم لا رجعة فيه ...

تجهزت ببعض الزاد ، وحملت عكازي ، متجهها إلى
حجرة « نفرت » ، فلم أجدها ، فتوخيت باب الخروج ،
فرايتها تتخايل في الضوء البهي ، تأمة الزينة والزخرف ...
لأنها ترتقب مقدمه ...

هي في انتظاره حتما ...

وشعرت بقلبي ينصهر بين أضالعي ، وعلت مسخنتي
جهامة واكتئاب ...

... ١٠٦ ...

وأحسنت « نفرت » بي ، فأسرعت خذالدا نحوي ، وقالت :

ما أبهج اليوم وما أطيبه ! ...

فقلت في صوت أجش ، ونظراتي زائغة :

نعم ، إنه ليوم طيب بهيج ، جدير أن يستمتع به

الشباب ! ...

فماضت ابتسامتها ، وهي تتداني مني تتأملني :

ما بك يا أبي ؟ يبدو عليك السكد ... ألم تنعم

بنوم مريح ؟

— لقد جفاني النوم يا « نفرت » ! ...

وأمسكت عن القول ، وأنا أرمي بنظري في الأفق

البعيد ، ثم استأنفت قائلاً :

أصني إلى « يا » نفرت ، ، إنني في حاجة إلى رياضة

روحية ألزم بها نفسي ...

— ماذا في الأمر؟ أوضح ا...

— سأغيب عنك مدة لا أعرف مقدارها ... أشعر
بأنى فى حاجة إلى فترة أحاسب فيها وجدانى ،
وأحتكم إلى ضميرى ... سأزاول امتحانا نفسياً
جديداً ...

— فيم المحاسبة والاشتكام؟ ... وفيم الامتحان؟ ...

— أقول لك صادقاً يا « نفرت » ... أنخى على نفسى
من نفسى ... يبدو أن نزعة الشر ما زالت قابضة
فى أغوار كيانى ، وأن الحياة قد دبت فى هذه
النزعة من جديد ...

— كيف تتوهم أن فىك نزعة شر ، وأنت قد بلغت
من الطهر والصفاء مرتبة تدنو من مراتب الآلهة ؟
فابتسمت فى تحسر ، وأجبت بقولى :

— ١٠٨ —

إن من تحسبينه قد دنا من مراتب الآلهة ، يحس

اليوم أن الأرض تميد تحت قدميه ميذا ! ...

— لا تجحد فضلك يا من غدوت إلها معبودا ... وما ينبغي

للآلهة أن تخشى طوارق الأحداث ! ...

ووقفت برهة صامتة ، وهى تنظر قبالتها نظراً حالماً ،

وتكلمت فى صوت متنخم :

يا له من مشهد رائع عظيم ... ذلك الذى شهدته

فى المعبد أمس ...

— أذهبت إلى المعبد ؟ ...

فواصلت حديثها غير معنية بما سألتها فيه ، وهى على حالها

حالة النظرات :

كان الجمع زاخراً ، وكلهم من شباب القوم ، فى

لبوس العيد ، والمعبد بأعمدته المتناثرة ، وحوائطه

— ١٠٩ —

الموشية بالنقوش ، يعبق بالبخور الزكي ، والكهنة
في طياصهم يرتلون الأناشيد ، يسايرها إيقاع
موسيقى أخاذ ، وأصوات الجوع تردد المقاطع في
تهلل ، وعيوننا متعلقة بتمثال الإله العظيم
« بتاح ، ... كنا نشهد :

أى « بتاح ، ...

يا حافظ الأرض والسماء ...

يا واهب الخير والنماء ...

أنت مسدى للنعمة ...

أنت مولى الرحمة ...

إنك الكلمة الحاسمة ...

إنك الحقيقة الدائمة ...

تعاليت وتقدسدت ...

- ١١٠ -

إلهنا «بتاح» ...

والتفتت إلى ، وابتهامة الغبطة تتألق على عيّاها ،

وهي تقول :

كنت أصلى وأرتل الأناشيد مع « بنسكار » ،

وأنا أتمثلك حياي ، قائما في تمثال الإله «بتاح» ...

كنت أنشد لك ، أنشد للإله الأعظم الذي أراه

نصب عيني ...

فهممت في نبرة حزن :

وهل أنا إله يا « نفرت » ؟ ...

— ولماذا تأتي أن تكونه ، والناس كلهم يرونك إلهًا ،

وأنا منذ نشأت لم أرك إلا ذلك الإله المرموق !

فهمست ناكس الرأس :

لست إلهًا يا « نفرت » ... أنا امرؤ ضائع ...

... حاشا لك أن تكون خاطئاً !
... كنت أحسب أني كما نوحين ، ولكن نجلت لي
الحقيقة عند التجربة ... عرفت أني خاطيء لا ريب !
... كيف ذاك ؟
... ما أفقرني إلى ابتغال إلى الإله الحق ، نور الأزل ،
أستلهم منه طمأنينة اليقين ... الشكوك تراودني ،
والخيرة تنوشني ، ولا أتبين وجه الطريق ! ...
ووقفت أساءها أتوسمها ملياً ، كأني أبني أن أتزود منها
بأكبر قدر مستطاع ، قبل أن يفصل بيننا الوداع ...
وهمست :

لقد بدأت رؤياك في الواحدة الخمسة التحقق
يا ، نفرت ... هذا تأويل الرؤيا ... المدينة
العظيمة ذات الأبواب السبعة توشك أن تبطلك ،

— ١١٢ —

وأسوارها توشك أن تنقض عليك ، فتسليني إياك ...

إني مرتحل ...

— إلى أين ؟ ...

— لا أدري ... وداعا يا « نفرت » ... وداعا ربما كان

بعده لقاء ...

وضربت بعكازتي أديم الأرض ، ودفعت بخطاي صوب

المنطقة الخالية ... على حين لمحت شبح « بنكاو » قادما من

المدينة ذات الظلال الخضراء ، فأمعنت في السير ، تحيط بي

وقدة الحر ، وأحس تحت قدمي صلابة الصخر ...

